الأَديبْ و المُفَكِّرْ الرَّاحِل
رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاوَنْدْ
قراءة في كتاب
"مجالس العلماء"

قراءة في كتاب
"مجالس العلماء"

....

الإيمان لا المعرفة.. والعظمة لا الضخامة.. هما اللذان يحققان عصر الاستنارة في تاريخ الشعوب.

إنّ أمّة تجعل من الفلسفة المنطلقة من قاعدة إيمانية صلبة وتجعل من العلم مجرد وسيلة لاستغلال الطبيعة بكل ما فيها من القدرات والثروات، فتكون غايتها السعادة التي تشد أفرادها إلى الكون الكبير، والى الله مبدع هذا الكون وخالقه، وإنّ أمة ترفض أن تكون سجينة اللحظة وحبيسة اللذة وعبدة للحس، كما قال بعضهم، فلا تستسلم لمنجزات العلم المادي، ولا تجعل من وقائعه وحقائقه مرشداً وموجّهاً، وتتصف بالفضائل الكبيرة السامية من نخوة وشهامة وكرم مغذية في نفسها كل العواطف البشرية الكريمة بالحرارة والفتوة والأمل، إنّ مثل هذه الأمة هي وحدها التي تستطيع أن تضع العلم المادي في مكانه المناسب له وتفرض عليه الشروط والظروف التي لا تسمح له بتجاوز هذا الغرض الذي خلق له.

هذه الأمة هي التي نحلم بتكوينها وبتحقيق أطماحها الإيجابية البناءة...

وليست دعوتنا لإحياء التراث الإسلامي غير الوسيلة الوحيدة والفرصة الفريدة المتاحة لنا نحن المسلمين.

فماذا في تراثنا الفكري والعلمي مما يدفعنا إلى المناداة بهذه الدعوة؟ لن نحاول بالطبع في هذه العجالة وضع التحليلات المطولة لطبيعة هذا التراث لا سيما وأننا قد اجتزأنا في كل حلقة من الحلقات السابقة بالقدر القليل الذي تطبقه معالجة إذاعية سريعة. ولكننا نجدنا مرغمين، عوداً على بدء وتكميلاً لسلسلة المناقشات، على وضع لمسات سريعة.

إنّ في تراثنا فلسفة..

ولفلسفة تراثنا شخصية نابعة من تجربتنا التاريخية..

إنها منقطعة انقطاعاً تاماً، خلافاً لما يظنه بعضهم ويردده المستشرقون بعامة عن كل فلسفة سابقة ولا سيما الفلسفة اليونانية، ثم الفلسفة الغربية الأوروبية التي خرجت منها.

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سـيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا: info@RamadanLawand.com

الفلسفة اليونانية في جوهرها فلسفة إلحاد رغم أنها قد تأثرت ظاهرياً بفلسفة الأديان الكتابية التي ظهرت في الشرق ولا سيما الدين الذي أتى به موسى عليه السلام حين اعترفت هذه الفلسفة بوجود إله خالق على لسان سقراط أو بوجود آلهة في بعض الأوقات.

ولو حاولنا أن نتعرف إلى طبيعة الإله الذي هو علة كل شيء وخالق كل الأكوان عند الفلاسفة اليونانيين لتبين لنا هذا الخالق على الصورة اليونانية كائناً لا نهائياً مقطوع الصلة بمخلوقاته جامداً فاقداً لأية إرادة مسكيناً يملك ولا يحكم.

ولماذا نذهب بعيداً ونصوص الفلاسفة اليونان بين أيدينا. لنقرأ ما كتبه أرسطو، الفيلسوف اليوناني الذي انتهت إليه رياسة الفكر اليوناني، في تعريفه للإله الخالق كما يتصوره. لقد ورد في ص 161 من كتاب "قصة الفلسفة:ويل ديورانت" الوصف التالي له: قال ديورانت: "يتصور أرسطو الله بوصفه روحاً تعي ذاتها، وهي روح غامضة خفية، ذلك لأن إله أرسطو لا يقوم أبداً بأي عمل. فليست له رغائب ولا إرادة ولا غرض، وفاعليته خفية خالصة إلى حد تجعله لا يفعل شيئاً أبداً. وهو كامل كمالاً مطلقاً، لذلك ليس في مقدوره أن يرغب في أي شيء، فهو لا يعمل إذن أي شيء.. ووظيفته الوحيدة هي التأمل في جوهر الأشياء. ونظراً لأنه هو بالذات جوهر جميع الأشياء، وشكل جميع الأشكال، فإنّ عمله الوحيد هو التأمل في ذاته .."

هذا الإله ماذا يفعل في الكون؟

إن أرسطو لم يقطع أن يعين أية علاقة عملية بينه وبين الكون. إن في وسع أي مفكر يوناني أن يتصور العالم بعيداً عنه وأن يتخيل صنع كل شيء دون أي تدخل منه. فهو إذن وجود نظري تنقصه الحرارة والحيوية والإرادة والسلطة الحقيقية أي ينقصه كل ما يمكن أن يكون به الإله إلهاً كما نفهمه نحن المسلمين أو يفهمه أولئك الذين يؤمنون بإله خالق قادر عالم فعال لما يريد.

قلنا في حلقة سابقة أن أرسطو عند المسلمين غير أرسطو عند اليونان والأوروبيين من بعدهم. فهو عند المسلمين أفلوطيني الفكر إلهي المذهب بل يكاد يكون إنساناً مؤمناً متديناً يلتقي بحكمته الفلسفية مع عقيدة المسلمين الدينية.

ولم يقف الفلاسفة المسلمون عند هذا الحد من تحوير شخصية أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان ولم يقتصروا على نسبة كتب أفلوطينية الطابع إليه بل أصروا بخطة قاصدة واضحة على التأليف في موضوع التلاقي بل والاتحاد بين الفلسفة والشريعة في الوصول إلى الله ومعرفته ولم يجدوا حرجاً في أن يجعلوا من المعرفة الحسية مدخلاً حتمياً وضرورياً للمعرفة الدينية المباشرة التي يكون طريقها الإلهام أو الوحي أو الاتحاد المباشر بالله.

كان على هذه الصورة الفلاسفة الشرقيون والفلاسفة المغربيون وفي مقدمة هؤلاء الأخيرين كل من ابن باجه وابن طفيل وابن رشد وعشرات آخرون غيرهم.

نظرية التوحد عند ابن باجة وقصة حي بن يقظان عند ابن طفيل ونظرية الاتصال بين الحكمة والشريعة عند ابن رشد كلها آيات وعلامات على أن الذات الإلهية عند الفيلسوف المسلم هي الله الخالق البارىء القادر الفاعل لما يشاء تماماً كما جاءت به النصوص القرآنية الصريحة.

وما يقال من أن الضغط الديني هو الذي أرغم الفلاسفة المسلمين على اتخاذ مثل هذا الموقف لا يقف رداً على وجهة نظرنا. فإنّ الأمة العربية والأمة الإسلامية من ورائها حين تميزت ببصيرتها الدينية لم تسقط في استغلالية الكهانة وتحجر الطقوس بل بقيت قوية الصلة بالنشاط العقلي الذي أتاح لها أن تلعب دوراً بناء في صنع حضارة قيادية. يضاف إلى ذلك أن الفلسفة الإلهية الإسلامية المتميزة بالحركية والإرادة الفاعلة في عقيدتها في الله وإيمانها بقدرته اللانهائية لم تتجاهل دور العلم باعتباره وسيلة من وسائل الغوص على أسرار الطبيعة واكتشاف قوانينها. الفرق الكبير بين العلم الإسلامي والعلم الغربي الأوروبي أن الأول وسيلة للانتفاع من الطبيعة والإفادة من طرقاتها بينما الثاني محاولة للحلول محل العقيدة والفلسفة.

العلم الإسلامي يحتفظ بعظمة الإنسان في إيمانه وقيمة الروحية بينما العلم الأوروبي يحول الإنسان إلى جثة ميتة بريئة من العواطف خالية من القيم فاقدة لحركية الحياة المتحدة بمعاداة الطبيعة.

والعلم الإسلامي يحتفظ بالأمل الذي تصنعه الفلسفة ذات البصيرة الدينية بينما العلم الأوروبي ينتهي طغيانه إلى إلقاء الإنسان في العدمية والحيرة والإلحاد.

وإذا كنا نمنّ للعلم الأوروبي أنه كان وراء التكنولوجيا الهائلة التي حققت منجزات ضخمة في ميدان الاختراع، فإنّ هذا العلم بالذات قد وسع الهوة بينه وبين الحياة وكان أكثر جهلاً لها، وهو بالقدر نفسه يزداد غروراً بذاته وتنكراً لكل منهج غير منهجه المادي ولكل قيمة غير القيمة المادية الجامدة. إنه وجد الأسلوب السهل اليسير الذي يتيح العقل أن يحوّل كل الأبعاد إلى أشكال هندسية واعتبر كل مظاهر الحياة مجرد تفاعلات كيماوية ولم ير في العواطف البشرية غير أرقام في كشوف الحسابات.

لقد أسقط العلم الأوروبي سلطان الكهانة الدينية أو أضعفه على الأقل وحصره في حدود ضيقة جداً وبدأ يتلفت نحو كهانة علمية غريبة. فهو مرغم في مثل هذا الموقف كما قال ديل ديورانت على الاختيار بين كهنوت علمي يلوك أفكاره متمتماً بتشاؤمية مبهمة غامضة وبين كهنوت لاهوتي يهمهم بآمال غير معقولة.

لكنّ العالم المسلم قد أدرك منذ البداية وبفضل من التعاليم الإسلامية أنّ لعقله دوراً هاماً في تنظيم حياته والاجتهاد في اختيار الحلول الملائمة له في دنياه وتعيين المواقف المفيدة له في معاده، فهو مدعو أبداً إلى السير في مناكب الأرض بحثاً عن رزقه، وهو كثيرا جداً إن أحسن استعمال عقله، وتنظيماً لمجتمعه إن احتفظ بسلامة الإيمان في قلبه وصحة العقيدة في نفسه، ولكنه لا يتجاوز هذه الحدود فلا يطمح الى إدراك كل ما لا سبيل إلى إدراكه بل عليه أن يؤمن بتلك القوة الخالقة المبدعة التي حققت له الكون فوضعت كل شيء في حساب دقيق. وجاءت الإشارة إلى هذه الحدود في الآية القرآنية الكريمة: " وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا".

هكذا تم اللقاء بين الأبعاد المتناهية للإدراك الحسي والمعرفة العلمية وبين الأبعاد اللامتناهية للقدرة الإلهية التي يتعلق بها الإيمان. بالإدراك الحسي تتحقق المنافع العاجلة وبالإيمان تتحقق المعاني الإنسانية الكبيرة وتبرز العظمة التي تفعل كل معجب مدهش وتبني وحدة البشرية في أجزائها بعضها والبعض الاخر،كما تبني الوحدة الكونية بين البشرية والعلم الذي يحيط بها من كل جانب.

إنّ الإلحاد اليوناني القديم سقط في كهانة دينية، أما الإلحاد الأوروبي المعاصر فقد سقط في كهانة علمية متشائمة مشوشة. كل هذه التأملات خطرت في بالي وأنا أتصفح كتاب "مجالس العلماء" لأبي القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي. وهو من الكتب التي أخرجتها وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت.

وقد يدهش قارىء الكتاب أمام مثل هذه التأملات التي لا رابط في الظاهر بينها وبين محتويات مجالس العلماء، فالعلماء الذين يحدثنا هذا الكتاب عن مجالسهم هم جماعة من النحويين يبحثون عن دقائق اللغة وأبنيتها والحركات في أواخر كلماتها، بينما التأملات التي سجلت في السطور السابقة أشبه بالفكر الفلسفي وأحلام المؤمنين الكبار. لكن الدهشة لا تلبث أن تزول من ذهن القارىء حين ألفت نظره إلى أن الغاية من التعريف بكتب التراث هي تسجيل كل الخواطر التي يخرجها توارد الأفكار عند أقل مناسبة من المناسبات.

إن المناقشات النحوية في كتاب الزجاجي الذي أتصفح صفحاته هي فلسفة لغوية تبتدىء بها لعبة الفكر الذي يسجل كلّ اهتزازة من اهتزازاته في الكلمات. والكلمة وسيلة من وسائله الكثيرة في تسجيل التجربة الإنسانية.

إن هناك قاسماً مشتركاً يربط بين كل الموضوعات التي يناقشها العقل الإنساني. وبهذا القاسم المشترك تبدو وحدة الحياة والكون. وتنكشف معجزة الإبداع الإلهي الخالد.

الكلمة فكرة مكثفة، والفكرة كلمة متخلخلة، والعلاقة بينهما كما تكون العلاقة بين المادة والطاقة. فالمادة طاقة مجمدة أو مكثفة. والطاقة مادة متخلخلة. وكما أن الكلمة فيما يتحقق لها من دقة التعبير وانتظام الحركة وتنوع التحولات قادرة على أن تشف عما وراءها من الفكر فإنّ المادة فيما يتحقق لها من العناصر المختلفة وانضباط الحركة وتنوع التحولات قادرة على أن تشف عما وراءها وفي أعماقها من الطاقات الكامنة.

إن وحدة الحياة والطبيعة هي سر الإبداع الإلهي، ولو شئنا أن نسير مع منطق هذه الظاهرة لأدركنا معنى إخبار الله تعالى لنا أن كل شيء في الكون يسبح بحمده، ولكن لا نفقه تسبيحه، فكل شيء إذن هو هذه الحقيقة الوحيدة التي تبدد بها عبودية كل الكائنات لله سبحانه وتعالى وتنكشف بها وحدة الخلق الإلهي، وليس الفرق بين الإنسان الحي العاقل المفكر وبين الأكوان المسبحة لله سبحانه وتعالى مدركة عبوديتها له بهذا التسبيح إلا في أنّ الإنسان قد قبل مسؤولية الإيمان التي يبلغ بها وعي الإبداع الإلهي القمة. وهي مسؤولية عظيمة تتحقق بها عظمة الإنسان في معاناته لإرادة الحياة العاقلة المؤمنة. ولعل الله سبحانه وتعالى قد قصد إلى هذا المعنى في قوله الكريم: "إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا"..

هكذا يعي التراث الإسلامي ظاهرة العلم اضطراباً في طول الكون وعرضه ومعاناة لعملية الكشف عن قوانين هذا الكون مستهدياً بالإيمان الذي هو وحده الذي يحقق عظمة الإنسان. فالعلم ينتهي إلى التكنولوجيا بكل منجزاتها الضخمة والإيمان ينتهي إلى الكشف عن عظمة الروح وخصب العبودية لبارىء هذا الكون الكبير.

وأخيرا أعتقد أن فيما أوردته من الملابسات بين التأملات الفلسفية وكتاب مجالس العلماء مقنعاً لكل طالب قناعة.

ولنعد إلى كتاب مجالس العلماء لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، ما هو هذا الكتاب؟ وما هي الغاية من تحقيقه وإخراجه؟

يقول الدكتور صلاح الدين المنجد في تصديره:

"ولقد قدمنا فيما صدر (من الكتب السابقة) تاريخاً وحضارة وأدباً وشعراً ولغة، لأئمة كبار، في تواليف ألف معظمها في القرون الخمسة الأولى للإسلام " وكتاب اليوم يتصل بالنحو، أو إن شئت بمجالس النحويين وما جرى فيها من مسائل تتعلق بوجوه النحو وتعليله. على أن هذا النحو هنا ليس جافاً ثقيل الظل، بل إن الحكاية التي وردت ماثلة بها جعلته خفيفاً على النفس قريباً منها. والكتاب إلى ذلك يفيد في فهم النحو، ويؤرخ لمدارسه وعلمائه وتطوره. وقد ألفه أحد كبار النحاة في القرن الرابع، وهو الزجاجي، الذي يعتبر حجة في النحو واللغة معاً "..

وفي وسعنا أن ندرك أهمية هذا الكتاب في النحو ومدارسه وحكاية مجالس أصحابه حين نتأمل جيداً فيما ورد في تصديره وحين نتذكر ما قلناه في الحلقة السابقة عن وحدة الحياة والكون.

إن فهمنا للحضارة الإسلامية مشروط بالاطلاع على كل ما حققته هذه الحضارة وأبدعته من تاريخ وأدب وشعر ولغة ونحو وفلسفة ودين. وإذن فنحن نسير مع منطق الخطة المتبعة حين نهتم للمدارس والمناقشات النحوية كما نهتم للمدارس والمناقشات الأدبية والفلسفية والدينية.

أما محقق الكتاب الأستاذ عبد السلام محمد هارون فقد جاء بدوره في المقدمة التي قدم بها الكتاب، يحدثنا عن الصعوبات التي عاناها في تحقيقه لها ويحكي لنا حكاية الملابسات التي أحاطت بمادة الكتاب وتعيين اسم مؤلفه الحقيقي.

قال: "عرفته (أي الكتاب) منذ أكثر من ثلاثين عاماً، ولكني لم أكن عرفته تمام المعرفة، وكان اسم مؤلفه في موضع الشك عندي، لم أسع إلى تحقيقه، لأنني لم ألابسه ملابسة ولم أتمرس به تمرساً. وحينما درسته وقلبت أثناءه وتضاعيفه، وألقيت شباك البحث حوله، لم تخالجني ريبة أن اسم مؤلفه زيف من الزيوف، وأن صاحبه على وجه التحقيق هو: " أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي".

أما تفصيل المعاناة واستعراض المتاعب التي واجهها المحقق في حصر مادة الكتاب وإضافة الزيادات عليه والتي وجدها في مراجع مختلفة، فلن نلجأ إلى التحدث عنهما فلنا في مقدمة المحقق ما يقوم عنا بهذا العبء.

إن نظرة سريعة إلى أسماء المراجع التاريخية التي استعان بها المحقق كافية لإعطاء صورة تقريبية عن أبعاد الجهد المبذول.

مادة الكتاب مدرجة في 350 ص وعدد المجالس التي حكيت حكاياتها 156. ومسائل الكتاب التي نوقشت في هذه المجالس 349 مسألة. أما مسائل العربية ومراجع الشرح والتحقيق التي استعان بها المحقق فهي تتجاوز العشرات.

على أن الإفادة من كتاب مجالس العلماء لا تقف عند المسائل النحوية والعربية ولا تقتصر على التعريف بأسماء النحويين واللغويين وما يتميزون به من سرعة الخاطر واتساع المعرفة والغوص في أسرار اللغة وفلسفة تكوينها بل تتجاوز هذا كله إلى ميدان الطرائف والأحداث التي تعكس صوراً من النفسية البشرية فيها حب وبغض ومكابرة ومصانعة وشدة ورقة تختلط هذه كلها فتتبدد لنا حافلة بالحرارة والحياة متميزة بفنون من الواقعية.

والشواهد أمامنا كثيرة.

وها نحن أولاء نختار منها المجلس الثاني عشر الذي عقد أمام الخليفة الأمين العباسي محمد بن هارون بين الأصمعي وعباس بن الأحنف. جاء تحت عنوان: " مجلس الأصمعي مع عباس بن الأحنف ص 24 ما يلي:

قال الأصمعي: بعث إلي محمد بن هارون، فدخلت عليه وفي يده كتاب يديم النظر فيه من تعجب منه، فقال لي: يا عبد الملك، أما تعجب من هذا الشاب وما يجيء به؟ فقلت: من هو؟ فقال: عباس بن الأحنف. ثم رمى إليّ الكتاب فإذا فيه شعر قال عباس، وهو:

إذا ما شئت أن تصنع شيئاً يعجب الناسا
فصورها هنا فوزا وصور ثم عباسا
ودع بينهما شبراً وإن زدت فلا بأسا
فإن لم يدنوا حتى ترى رأسيهما رأسا
فكذبها بما قاست وكذبه بما قاسى

قال الأصمعي: وكان بيني وبين عباس شيء فقلت: مسترق يا أمير المؤمنين: قال: ممن؟ قلت: من العرب والعجم، قال لي: ما كان من العرب؟ قلت رجل يقال له " عمر "، هوى جارية يقال لها " قمر " فقال:

إذا ما شئت أن تصنع شيئاً يعجب البشرا
فصورها هنا عمرا وصورها هنا قمرا
فإن لم يدنوا حتى ترى بشريهما بشرا
فكذبها بما ذكرت وكذبه بما ذكرا

قال: فما كان من العجم؟ قلت: رجل يقال له "فلقا" هوى جارية يقال لها "روق" فقال:

إذا ما شئت أن تصنع شيئاً يعجب الخلقا

فصورها هنا روقاً وصورها هنا فلقـا
فإن لم يدنوا حتى ترى خلقيهما خلقـا
فكذبها بما لاقت وكذبه بما يلقـى

فبينما نحن كذلك إذ جاء الحاجب فقال: عباس بالباب، فقال: ائذن له، فدخل فقال: يا عباس، تسرق معاني الشعر وتدعيه! فقال: ما سبقني أحد، فقال محمد بن هارون: هذا الأصمعي يحكيه عن العرب والعجم، ثم قال: يا غلام ادفع الجائزة إلى الأصمعي، فلما خرجنا قال لي العباس: كذبتني وأبطلت جائزتي، فقلت: أتذكر يوم كذا، ثم أنشأت أقول:

إذا وترت امرءاً فاحذر عداوته من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا

الحكاية هنا لا تدور حول نكتة نحوية ولا حول مسألة من مسائل العربية ولكنها أقرب إلى باب النقد في الشعر. ولكنها في الوقت نفسه تكشف عما كان بين الرواة والعلماء النحويين واللغويين من أحن وترات فينتظر الموتور منهم الفرصة المناسبة لينقض على واتره مزعجاً إياه ملاعباً له مبتدعاً ما شاء له خياله أو ما أسعفته قريحته.

وفي ظننا أن حكاية السرقات التي يتهم بها الأصمعي زميله عباس بن الأحنف أمام الخليفة ليست حكاية صحيحة. وأن الشعر الذى استشهد به الأصمعي إثباتا للتهمة الموجهة إلى عباس هو من صنع خياله.

ولا يدهشنا أن يرتجل أمثال الأصمعي مثل هذا الشعر كما لا يدهشنا أيضا أن يكون قد تتبع سقطات زميله عباس فعرف أنه قد رفع إلى الخليفة الأمين كتاباً من الشعر واطلع على مضمون هذه الأبيات فنظم أبياتاً مثلها على نفس الوزن وبنفس المعنى لإسقاطه أمام الخليفة.

وقد اعترف هو شخصياً بذلك كما تقول حكاية المجلس أمام زميله واعتبر تصرفه رداً على تصرف سابق صدر عن عباس في غير هذا الموقف.

لكن الشيء الطريف في هذا المجلس هو أن الخلفاء على كثرة ما يواجهون من الهموم والمشكلات الكبيرة كانوا يجدون متعة كبيرة في تخصيص جانب من ساعات يومهم لمجالسة العلماء والأدباء والاستماع إلى الجديد من معارفهم أو مناقشتهم. وهي ظاهرة تفسر لنا الازدهار العجيب لكل فروع المعرفة في ذلك العصر.

ويمضي كتاب مجالس العلماء في رواية الطرف الأدبية حافلة بمسائل العربية أو النحو فيها تسلية وصور ممتعة وفيها بحوث وتخريجات علمية.

ولكننا لا نستطيع نقل هذه الطرائف بنصوصها في مثل هذه الحلقة. فهناك مجلس الأترم علي بن المغيرة مع يعقوب صفحة 48 ومجلس محمد بن سليمان الهاشمي مع الأخفش وغيرهما.

وقد يكون من الخير أن نقف عند هذا المجلس بالذات، فنروي منه بعضه، " قال الأخفش الكبير: كان أمير البصرة يقرأ إن الله وملائكته، بالرفع فيلحن، فمضيت إليه ناصحاً له، فتوعّدني وقال: تلحنون لأمرائكم؟ ثم عُزل وولي محمد بن سليمان، فكأنه تلقاها من المعزول، فقلت في نفسي: هذا هاشمي ونصيحته واجبة، فتجنبت أن يلقاني بما لقيني به مَن قبله ثم حملت نفسي على نصيحته فصرت إليه وهو في غرفة ومعه أخوه، والغلمان على رأسه، فقلت أيها الأمير، جئت لنصيحة، قال: قل، قلت: هذا – وأومأت إلى أخيه – فلما سمع ذلك قام أخوه وفرق الغلمان عن رأسه وأخلاني، فقلت: أيها الأمير أنتم بيت الشرف وأصل الفصاحة، وتقرأ إن الله وملائكته بالرفع، وهذا غير جائز ! فقال: قد نصحت ونبهت فجزيت خيراً، فانصرف مشكوراً، فلما صرت في نصف الدرجة إذا الغلام يقول لي: قف مكانك، فقعدت مروعاً وقلت: أحسب أن أخاه أغراه بي، فإذا بغلة سفواء وغلام وبدرة وتخت ثياب، وقائل يقول: البغلة والغلام والمال لك، أمر به الأمير، فانصرفت مغتبطاً بذلك كله.

في حكاية هذا المجلس ظاهرة معجبة.

فيها هذه الغيرة على العربية والتعصب لنقاوتها من اللحن والسعي إلى تصحيح ما يقال فيها حتى ولو كان القائل هو الحاكم نفسه، وما يلفت النظر أن الأخفش لم يجد بداً من مراجعة الحاكم الثاني محمد بن سليمان ولفت نظره إلى الخطأ رغم ما لقيه من الجهامة والتوعد والتأنيب عند الحاكم الأول.

وفيها هذه الحرمة التي تتمتع بها العربية حتى عند كبار القوم فإنهم لا يجدون غضاضة في الاعتراف بالخطأ والشكر على النصيحة ولا سيما إذا كانوا أصلاء من بيت كريم، أما الحاكم الأول الذى أخذته العزة بالإثم هجين ركبه غرور الشيطان وخيل له الجهل ما لا يتخيله العالم الذي أخرجه بيت عربي طيب.

وإذا كانت في الكتاب هِنات فهي هِنات صغيرة:

أولاها خطأ مطبعي جعل قبلت مكان قلبت في الصفحة السادسة.

وثانيتها خطأ في فهم سباق المجلس فوضع على لسان أم أبي خبرة.

عبارة: أغمي على المريض بدل غمي عليه وهو مذهب أبي خيرة في الصفحة السابعة. ومثل هذا غير كثير في الكتاب.

وهناك ملاحظة أخرى ننهي بها هذا التعريف بالكتاب تتعلق بإغفال المحقق تصحيح الأخطاء الواردة في النص المخطوط أو في المراجع التي استعان بها. مقتصراً على إحالة القارىء إلى المرجع أو المراجع التي نقل عنها النص المذكور. ولو أنه أورد النص مصححاً مع تسجيل النص الخاطىء في هامش الصفحة لكان ذلك أعود بالفائدة على القارىء..

إن الغاية من التحقيق هي قبل كل شيء إخراج المخطوطة المحققة على الصورة التي ينتفي معها الخطأ والغموض انتفاء تاماً ما كان إلى ذلك سبيل، فلا يجد القارئ ما يعنيه ويدفعه للعودة إلى المراجع بدوره. ولعل في المجلسين الرابع والسادس ما يقوم

بدور التمثيل لا الحصر. على أنّ هذه الهنات الهينة لا تقلل من قدر الجهود التي بذلها المحقق في تحقيق الكتاب وإخراجه، وهو الذي قدم إلى المكتبة العربية الحديثة خيرة كتب التراث فأسهم في جلاء ثقافتنا الإسلامية والكشف عن ثرواتها الدينية.

إن كتاب "مجالس العلماء" ركيزة جديدة تضاف إلى الركائز السابقة في تدعيم خطة الإحياء وتغذية المسيرة التي تجتمع عندها روافد من هنا وهناك في كل بلد عربي فتنمو بها ويطرد تقدّمها حاملة معها الخير والخصب والرؤية النقية الواضحة لعالم إسلامي ما يزال مدفونٌ أكثره تحت ركام المخطوطات الموزعة في أطراف العالم كله.